منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الأيام للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5671) السنة الحادية والعشرون - الأربعاء (15) أيار 2024

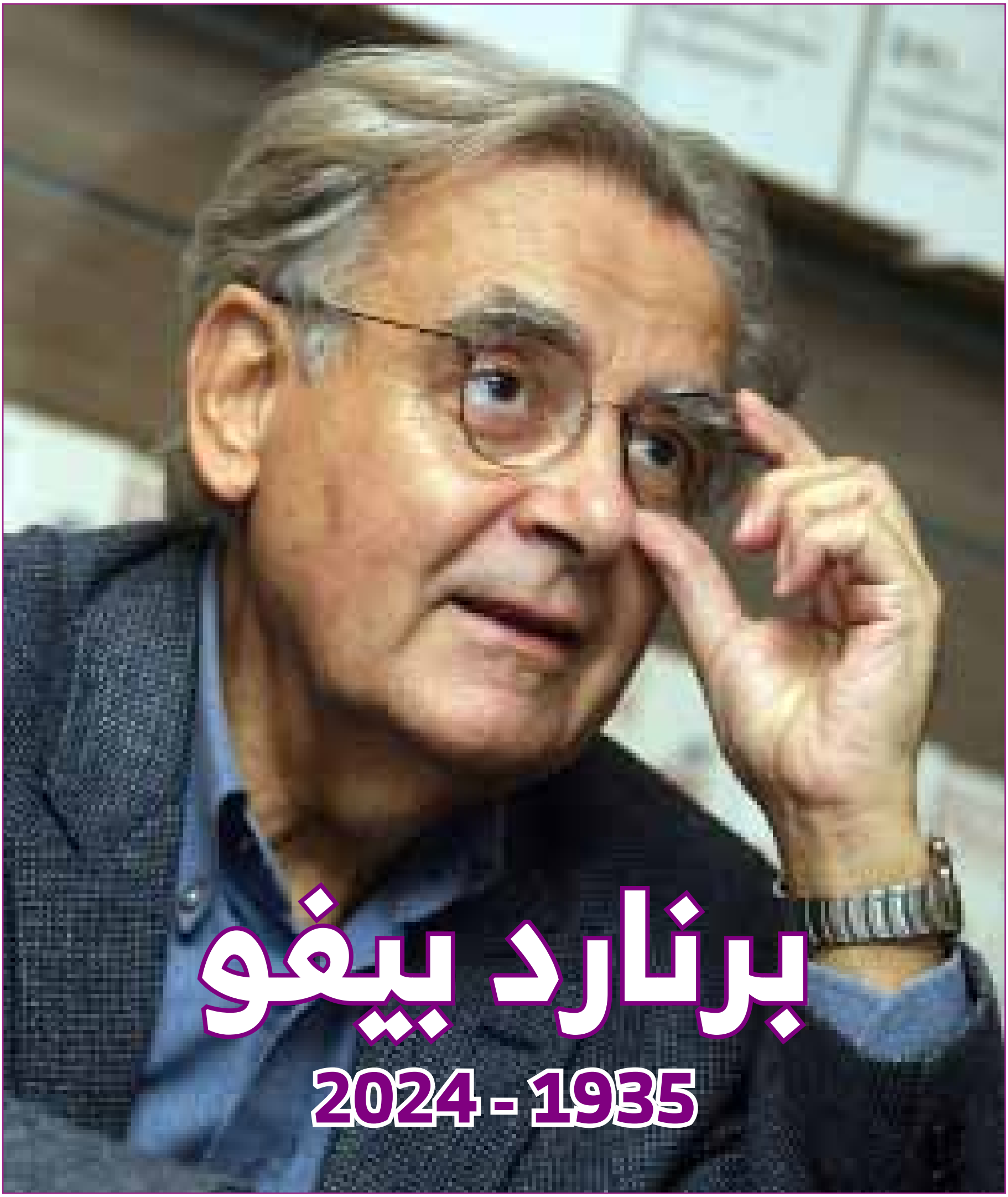

برنارد بيغو

2024 - 1935

برنار بيفو.. ظاهرة الشَّغَف بما هو الكتاب

غســان الحلـبي

يُمكِنُ القول إنَّ «ظاهرة - بيفو» لا لها مثيل في عالمِنا العربي بمعنى الفاعليّة والتأثير العام في حقل اهتمامه، لا في المستوى الشخصيّ لصحافيّ مُدمِن قراءات دؤوب عبر عشرات السنوات، ولا - خصُوصًا - في المستوى اللوجستي (مجلات راقية، منصّات إعلام، صحُف، هيئات أدبية من الطراز الأرفع... والحديث عن الربع الثالث للقرن العشرين وما قبل وما بعد)، والَّذي لاقى الرَّجُل بسخاء التفهُّمِ والرعايَة وفتح الأبواب على مصاريعها أمامه للعمل والمبادرة والإبداع في اختراع مقاربات غير متوقَّعة لمِهنته.

برنار بيفو صحافيّ، قارئ، عاشق للأدب لا في حدُود غواية الشاشة والعلاقات، بل في الغوْص في المتون النَّصِّيَّة ومنها إلى جُوَّانيَّة الكاتب مهما كانَ كبيرًا وهم كثُر جلسوا أمامه في نقاش لَا تحدّه مواضعات إلَّا شغف الكلمة والكتابة والأشرَعَة التي تضربها الرّيحُ العاصفة نحو استكناه فعلهما وأثرهما. وهو رحَّالة في عالَم الكتاب بروح إعلاميٍّ متوهِّج قبل زمن «التسونامي الرقمي» واختلاطَ الراقي والمبتذل، والحقيقي والزائف، والنفيس والرخيص، والنخبويّ والشعبويّ، في الآن عينه وفي الصورة عيْنها على مدار السّاعة. رحَّالة مُبتدِع، في مشاركاته في بعض كبريات الصُّحُف، في مبادرته مع سرفان-شرايبر لإصدار مجلة «Lire» الشهيرة عام ١٩٧٥، في بحثه العاصف عن شكل برنامج تلفزيونيّ لمجد الكتاب، فكان «أبَوستروف» (١٩٧٥-١٩٩٠)، ثُمَّ «بْويَّونِ دو كولتور» (١٩٩١-٢٠٠١). وكلّ ما يخطر في بالَ مثقَّف ضليع مُتابع من كبار وجوه الأدب والكتابة والكلمة يجد أنهم مرُّوا من أمام بيفو في برنامجيْه وسط لهب الحوار والجدل والمنافرة والانسجام والفهم وسوء الفهم والصخب داخل دلالات المكتوب والمنشور بلا أفكار مُسبَقة وبلا رقابة جائرة جاهلة بالمادَّة، تدّعي حرصها على انضباطها في قواعد نظام لا يفقَهُ الحرِّيَّة في هذا الحقل أو غيره.

لقد بات في زمنه محض ظاهرة، لا يعنيه الموقع، ولا تغريه الصفقات، ولا يضمحلّ فريسة مرآة أناه. من الشغف وإلى الشغف يعود. فالرجل هو القارئ par excellence، لازم ومتعدٍّ على حدٍّ سواء. مسكون بحسّ الأدب ومالك الشّيء يُعطيه. غير مكتف بذاته إذا ما انتابته حمّى النّصّ، بل يمضي محوّلا إيّاهاً من عمليَّة تلقٍّ ذاتيَّة إلى طقس احتفاليّ مرئيّ مسموع يُقيم دنيا الأدب - وبالضّرورة ينقل العدوى- ولا يُقعدها. تصير اللغةُ المرصُوصة في الأوراق وجهًا إزاء وجوه، وجسدًا تبدِّده الكتابةُ كالإكسير لا يبقى منهُ إلّا انفعالات المعنى الآتي من وراء الحروف والكلمات. ونصًّا لا يقفُ عند حدّ كتاب إنَّما ينتشرُ عبر فضاء شاشة الضَّوء فيروسًا لا بدَّ منهُ لحالة ثقافيَّة تدبّ فيها الحياة وتغلي بالحياة عينها. برنار بيفو صورتنا التي لا نحياها في عالم كتابنا المسكون بجهابذة الأمر الواقع، والراسف محاطًا بالجنود. ها هو، مكلّلٌ بالشّيب يُلقي الرِّحال شابّا بولَع الأدب، غير معاند إيقاع الزّمنِ أو طامح إلى شخصه أيقونة أو مُنصِّبً حاله عرَّاب المريدينِ. كانت محطّاته عرس الكتاب، لا تدبيجًا لمناسبَة أو تقريظًا لكتَبَة سلطان أو بدالا بخدمة، إنّما ولوجًا إلى النّبع الحيّ الَّذي يسقي فعل الإبداع، وعروسه الكاتب لا الدَّاعية، والكتابة لا الاستكتاب، والخيار الحرّ لا البروباغندا.

تابعه ملايين المشاهدِين، وجملة إيجابيَّة منه في كتاب كانت كافية لوضعه علَى رأس المبيعات. كان أقرب إلى الموضُوعيَّة منه إلى فكرة السّوق. قيل في إحدى الصحف الفرنسية إنّه الموت الثاني له في غيابه عن عالمنا في السادس من الشهر الحالي وكاد يبلغ التّسعين. القَصد أنّ موته الأول كان توقّف برنامجه المرئيّ الأسبوعيّ عام ٢٠٠١ بالرغم من دخوله أكاديمية غونكور عام ٢٠٠٤ وترؤّسه لها عام ٢٠١٤. لكنّ حيويّته الإبداعيّة فقدت منصّتها وفعاليّة تأثيرها الحاسم الذي اشتكى منها يوما المستشار الثقافي للرئيس ميتران ريجيس دوبريه الَّذي أراد «إزالة احتكار اختيار العناوين والمؤلفين من البث الممنوح لاستبداد رجل واحد يمارس دكتاتورية حقيقية في سوق الكتاب». لكنَّ «الملك لير» (المستخدَمة هنا بمعنى فعل القراءة Lire كما لقَّبهُ البعض) بقي محمومًا بشغف التّطلُّع إلى نشاط يواكب التطوّرات الهائلة في تكنولوجيا وسائل الاتّصَال، لكنّ ثقل السنين ردَّه إلى العائلة والأصدقاء والحياة الهادئة لا سيّما في السنوات القليلة الأخيرة.

ولا ينتهي برنار بيفو، ولا يكفّ عن إثَارة الشَّغف، ولن يُخمَد صوت حكايته مع الكتاب والقراءة وهذا الولَع بعالم الأدَب وولوج أدغال الروح الإنسانيّة عبره. الحديث عن مَوته هذه المرَّة تورية ملتبسة، لأنَّه ظاهرة أجَّجتها روحُه بحُبٍّ كبير لظاهرة الكتاَب عينها المُهَدَّدة اليوم بِشكل أو بآخر في عصرِ الاجتياح الرقميّ الَّذي يقدِّم لنَا «المُحوّل التوليديّ المُدرّب مُسبقًا للدردشة ChatGPT» ولا كتاب ولا مَن يُضِيء الشّموع

• عن موقع المدن

برنارد بيفو: الرجل الذي أكَلَتْه الكلمات!

بـــــرويــــن حـبـيـب

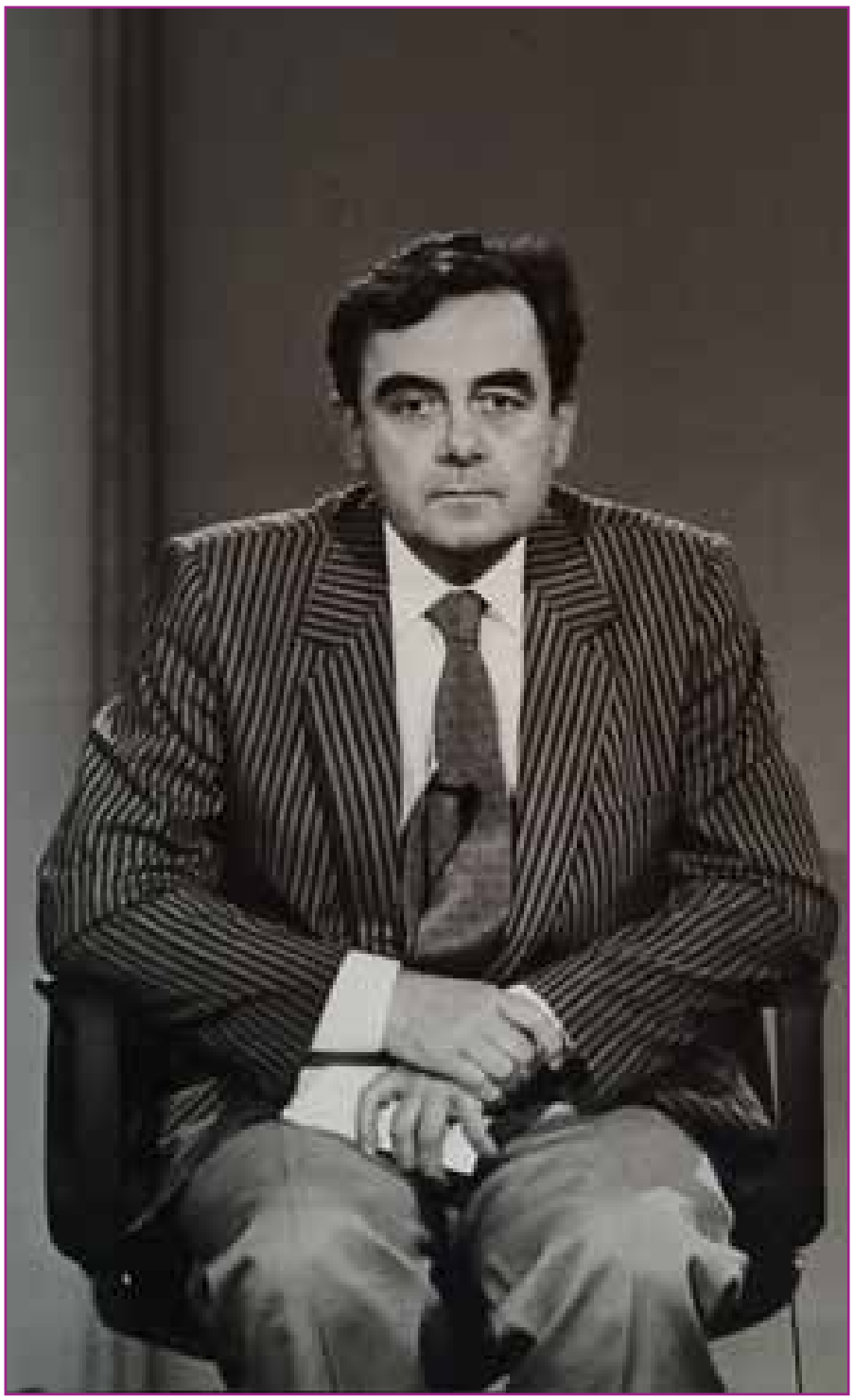

ما أن تشير الساعة إلى التاسعة وأربعين دقيقة من مساء كل جمعة، وعلى أنغام البيانو يعزف الكونشرتو رقم واحد لرحمانينوف حتى يطل على شاشة القناة الثانية الفرنسية برنارد بيفو، بنظارة طبية ترتاح على طرف أنفه تحت حاجبين كثيفين، وكتاب بين يديه، محاطا بثلاثة أو أربعة كتّاب مشهورين أو مغمورين لا يهم، فيتسمّر الفرنسيون والناطقون بالفرنسية أمام شاشاتهم الصغيرة لساعة وربع الساعة من الزمن ولمدة ربع قرن كامل ليتابعوا برنامجه الشهير «أبوستروف» وأخاه الأصغر «حساء الثقافة» وبعد نوم هانئ تتخلله أحلام بالكلمات، يتوافد الفرنسيون صباحا على المكتبات للحصول على نسخة من الكتاب الذي تحدث عنه بيفو في حلقته في اليوم السابق.

تبدو هذه الحكاية أشبه بقصة من أدب الخيال في عصر السوشيال ميديا والهواتف الذكية، التي نعرف وجوه مؤثريها أكثر من وجوه أحبتنا. لكن هذا فعلا ما كان يحدث يوم كان الكتاب غذاء الروح، والكتّاب هم «البلوغرز» الحقيقيين. كان يصنع هذا الحدث الأسبوعي ولسنوات طويلة رجل نذر نفسه للقراءة، وسماها مهنة كما جاء في عنوان كتاب شهير له، لكنها كانت بالنسبة له سببا للحياة وقدَرا، إلى رحيله قبل أسبوع بعد يوم واحد من عيد ميلاده التاسع والثمانين (١٩٣٥/٠٥/٠٥ – ٢٠٢٤/٠٥/٠٦). بدأ بيفو حياة عادية وانتهت استثنائية، فقد وُلد لأب بقّال سجن أثناء الحرب العالمية الثانية، كما كان مساره الدراسي عاديا مع ولع شديد بكرة القدم، إذ درس في كلية الحقوق ليتركها إلى مركز تكوين الصحافيين، حيث وجد نفسه، فتخرج ثاني دفعته. جرّب حظه في كتابة الروايات لكن روايته الوحيدة «الحب في رواج» التي نشرها في الرابعة والعشرين من عمره لم تلق لا الحب ولا الرواج من القراء، فعاد إلى ما هو مهيّأ له ويجيده، فالتحق محررا بأسبوعية «الفيغارو الأدبية» لثلاث عشرة سنة كاملة، عرف فيها الكتب والكتّاب ودور النشر، فكانت بنكَ معلومات ورصيدا مميزا لنجاحاته في ما بعد.

وللحقيقة لم يترك الكتابة في الصحف والمجلات منذ تخرّجه سنة ١٩٥٧ إلى ما قبل وفاته بقليل، وهذا الشغف البالغ حدّ الهوس بالقراءة والكتب دفعه إلى تأسيس أشهر مجلة فرنسية متخصصة في مراجعات الكتب وعرضها، وكل ما يدور في فلكها بعنوان «لير» (قراءة) مع صديقه جان لوي سارفان – شريبر، وتزامن هذا مع حدث مفصلي صبغ حياته وحياة ملايين القراء، إذ انتقل برنارد بيفو من كائن ورقي، إلى وجه تلفزيوني بعد تجربة تمهيدية في برنامج ثقافي قدّمه بعنوان «بين قوسين» حصل ذلك الحدث المفصلي يوم ١٠ يناير/كانون الثاني ١٩٧٥ حين قدّم حلقته الأولى من برنامجه المباشر «آبوستروف» على الهواء، ليبقى ولخمسة عشر عاما (آخر حلقة من البرنامج بثت في ٢٢ يونيو/حزيرانٍ ١٩٩٠) ملكَ البرامجِ الحوارية غير منازع، ومكتبة أرشيفية بصرية لكتّاب وكتب صاغت القرن العشرين على قالبها. ٧٢٤ حلقة عرض فيها أكثر من خمسة آلاف كتاب، واستضاف مئات المبدعين، ولا تزال بعض مقاطعها رائجة على وسائل التواصل الاجتماعي إلى الآن، بعد عقود من بثها.

كثيرة هي الأسماء الكبيرة التي جلست بين يدي بيفو نعدّ منها ولا نعدّدها: ألكسندر سولجينستين المنشق الروسي صاحب «أرخبيل الغولاك» كلود ليفي ستروس فيلسوف البنيوية الفرنسي، مارغريت دوراس صاحبة «هيروشيما حبيبتي» أمبيرتو إيكو السيميائي الإيطالي ومؤلف رواية «اسم الوردة»، ميلان كونديرا في واحد من أندر لقاءاته التلفزيونية، فلاديمير نابوكوف بشروطه الغريبة وحديث عن «أصابع لوليتا» إضافة إلى عدد من كبار الفنانين والسياسيين، مثل الممثلة جين فوندا، والمخرج رومان بولانسكي وزعيم التيبت الدالاي لاما والملاكم الأسطورة محمد علي. لكنه استضاف أيضا كثيرا من الكتاب المغمورين، أو أصحاب التجارب الأولى الذين خرجوا من بعد حواره معهم مشهورين، وارتفعت أرقام مبيعات كتبهم، ورغم أنه لم يكن من أهدافه استفزاز المشاهد. كما يحدث في البرامج الحوارية الآن لرفع نسبة المشاهدة. إلا أنه استضاف شخصيات مختلفة عن جو برنامجه العام، فظهر في برنامجه سارق البنوك سباغياري ونجمة السينما الإباحية بريجيت لاهاي. ولم يكن برنامجه على امتداد عقد ونصف العقد، نموذجيا دائما فبعض حلقاته عرّضه لانتقادات شديدة مثل تقديمه لكتاب غابريال ماتزنيف، الذي وَصفَ فيه بتباه علاقاته الجنسية بالقاصرات، ولم يعترض من الحاضرينً سوى الكاتبة الكندية دونيز بومبارديه، التي أدانت سلوك ماتزنيف، وقد ندم بيفو بعد ذلك بسنوات أنه لم يساندها وبرر تصرفه بأنه «في تلك المرحلة، كان الأدب يأتي قبل الأخلاق، أمّا اليوم فالأخلاق تأتي قبل الأدب». ومثلها ما حدث في حلقة الكاتب الأمريكي المثير للجدل تشارلز بوكوفسكي الذي حوّل الحوار إلى كارثة حقيقية، إذ كان يشرب – يوم كان شرب السجائر والخمور مسموحا به في الاستديو– ويثرثر ويتحرّش بإحدى الضيفات، حتى قال له الكاتب كافانا «اخرس يا بوكوفسكي» فترك الكاتب المخمور الحلقة مترنحا مرفوقا بخوف بيفو، من أن يتقيأ أمام الكاميرات كما صرح بذلك لاحقا.

والغريب أن الصحافة العالمية توافقت على انتقاد برنار بيفو، فقسم منهم لامه على السماح لكاتب مثل بوكوفسكي بالمغادرة دون محاولة ثنيه عن قراره، ومنهم من انتقده على فتح هواء برنامجه لسكير لا تؤتمن تصرفاته، إلى حد المطالبة بإيقاف البرنامج. لكن البرنامج استمر وتابع بعضَ حلقاته الناجحة ستة ملايين مشاهد، رغم أن حسرةً بقيت في قلب برنارد بيفو لأن أسماء مهمة أفلتت من قبضة «آبوستروف» مثل، سيوران ورينيه شار وجان بول سارتر. وقد شَرح لنا برنارد بيفو بنفسه سرّ ظاهرة برنامجه وكواليسها في كتابه «مهنة القراءة» الصادر سنة ١٩٩٠ ولم يصل إلى القارئ العربي مترجما إلا بعد ثلاثين سنة من صدوره، ويقول فيه إن الصحافي هو مترجم الفضول العام، أي يجد فيه كل مشاهد لسانا يَسأل به الكاتبَ عما يرغب في معرفته، وهذا الأمر ما كان ليتمّ بنجاح حقيقي لبرنارد بيفو، لو لم يكن يقرأ بنفسه كل الكتب التي يعرضها، وهو القارئ النهم الذي مارس هذا الشّغف اللّذيذ عشر ساعات يوميا، بمعدل خمسة كتب أسبوعيا لسنوات، وكان يرى أنه من الخداع للمشاهد أن يحاور صاحبُ البرنامج كاتبا لم يقرأ له.

لم يركن برنارد بيفو إلى نجاحه العظيم في برنامج «آبوستروف» الذي كان يصنع ذائقة قارئي الفرنسية إلى حد احتجاج البعض بأنه يمارس ديكتاتورية على سوق الكتب، فما أن فقد برنامجه «حساء الثقافة» شعبيته ووهجه بعد عشر سنوات من الوجود، حتى فتحت جائزة «الغونكور» أشهر الجوائز الفرنسية الأدبية ذراعيها لاستقبال برنارد بيفو، كأول عضو غير كاتب – فقد كان صحافيا في الأساس – ليصبح بعد عشر سنوات رئيسها الذي ترك بصمته الواضحة على قوانينها، فخمسُ سنوات من رئاسة هذه الأكاديمية المرموقة، نقلتها من حال إلى حال، حيث انفتحت على الروائيين الشباب ومنع بيفو أعضاء الجائزة من مزاولة أي عمل لدى دور النشر، كما فرض عليهم قراءة الأعمال المقدمة، وكأنهم تلاميذ يُمتحنون أمام أستاذهم. وقد تعوَّدَ على هذا الدور يوم أطلق بطولة للإملاء في فرنسا (Dicos d›or) تحولت بعد سنوات إلى مسابقة عالمية يشاهدها الملايين، وتبث مباشرة، وتقام في أكبر المسارح الفرنسية مثل، الأولمبيا أو حتى قاعة البرلمان، بل وأقامها في مقر هيئة الأمم المتحدة في نيويورك.

وهذا الشغف بالقراءة وتخصيص أيام العمر لها لم يحل بينه وبين عشقين قديمين رافقاه أيضا طيلة حياته: كرة القدم إلى حد تأليف كتاب بعنوان «كرة القدم باللون الأخضر» عن فريقه المفضل «سانت إيتيان» وكان معلّقا رياضيا على كأس العالم سنة ١٩٨٦، كما أنه كان يزوّد الفريق الوطني الفرنسي بالكتب، لعل عدوى القراءة تمسّ بسحرها اللاعبين. أما عشقه الثاني فكان النبيذ وقد خصّه أيضا بكتاب «قاموس عشاق النبيذ».

حياةٌ ملهمةٌ عاشها «عاشق الكلمات» الذي كان مثل بورخيس لا يرى الجنّة إلا مكتبة مترامية الأطراف، فهل سنسمع صدى صوته من العالم الآخر يصرخ يوما بعنوان أحد كتبه «النجدة! أكلتني الكلمات».

• عن القدس العربي

عندما غاب ساحر القراءة

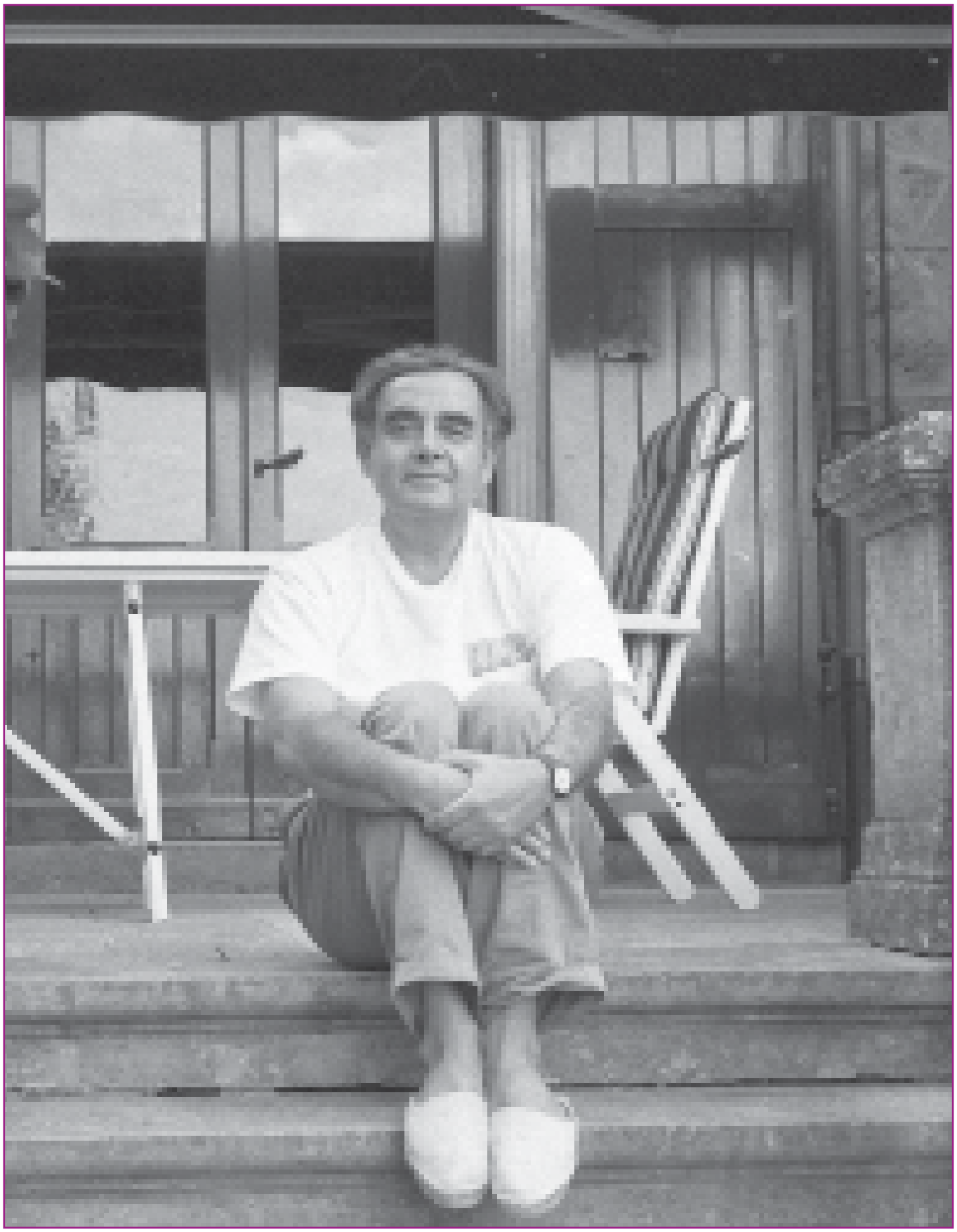

سـيـد مـحـمـود

لم يهتم أحد فى مصر بوفاة الكاتب الصحفى الفرنسى برنار بيفو، الذى مات عام ٢٠٢٤عن عمر ناهز ٨٩ عاما، وعاش عمره سفيرا للقراءة فى العالم.

مـات من صنع نجومية الكثير مـن أشهر كتاب العالم، و استطـاع أن يجعل القراءة سلعة تجلب المال وتصنع النجومية و اكتسب مكانة رمزية فى مجتمع لا يتوقف عن صنع الرموز و ابتلاعها بسرعة الصاروخ.

ففى بلد مثل فرنسا يعيش على صناعة الموضة، ليس مـن الصعـب أن تحـول الكتـاب إلى سلعـة أو تحول المؤلفـين إلى نجوم، لكن الصعب أن تفعل ذلك دون أن تستغنى عن شرط القيمة.

لذلـك يبـدو بيفـو مغامـرا حقيقيـا، فقـد واظـب على استضافـة مفكريـن وفلاسفـة وروائيـين متجهـين، مثـل لوكليزيو، موديانـو مارغريت دوراس، ألبرتو مورافيـا وجونـتر جراس وتشارلـز بوكوفسكى ومحمـد شكرى وكونديـرا والروائـى الروسـى سولجنتسين والفيلسوف جاك دريدا وغيرهم.

وبفضـل أسئلتـه الساخنـة واستنـادا إلى طابعـه المـرح غـير المتحذلق قرب هـؤلاء من الشبـاب وحول القـراءة إلى موضة، لكنه بقى فـى دائرة الباحثين عن المعنى، وأضـاف للفرانكفونية سفراء جدد من الأدباء والمفكرين والفلاسفة.

ولذلـك لم يكن من الغريب أبـدا أن ينضم إلى أكاديمية غونكـور عـام ٢٠٠٤، ويصبح رئيسا لهـا عام ٢٠١٤ قبل أن ينسحب منها فى نهاية ٢٠١٩.

وعلى الرغم من هوس صناع الإعلام فى عالمنا العربى بنسخ البرامـج الغربية الناجحة إلا أن أحدا لم ينجح طوال ٣٥ عاما هى عمـر الفضائيات العربية فى إنتاج برنامـج يماثـل برنامج بيفـو، لسبب بسيـط وهو أن السيـاق فى بلداننـا لا يماثل السيـاق الأوروبى الذى أفرز برنامج بيفو وحقق له هذه المكانة، كما أن فرنسا ليست كغيرها من بلدان العالم، فالقراءة هناك تقع فى قلـب التفاصيـل اليومية وليست علـى هامشها وهكذا يمكن أن نفهم حزن فرنسا على بيفو ونتأمله أيضا.

جعل الرجل من القراءة الاحترافية مهنة وكان الظهور معـه حلمـا يـراود مشاهير العـالم، لأنهـم أرادوا معه الحصـول على بطاقة اعتراف تدخـل بهم إلى فاترينة العالم.

لقب «برنار كلود بيفو»، بـ«سفير القراءة» لأن برنامجه عاش على القنـاة الفرنسية الثانية ١٥ عاما وبُثّ منها ٧٢٤ حلقـة وخلـق الكثير من التقاليـد التى ضمنت له متابعين تجاوز حاجز الـ ٢ مليون مشاهد.

وعلى الرغم مـن أنه صنع بعد (أبوستروف) برنامجا بديـلا هـو «بيـون دو كيلتـور» إلا أن تأثـيره كان أقل وقف بثه سنة ٢٠٠١.

يقـول البعـض إن غيـاب برنامجـه (فواصـل) أو (أبوسـتروف) كان طبيعيا بعد ميلاد شبكة الإنترنت، حيـث أصبـح فـى استطاعـة كل قـارئ الوصـول إلى مـا يريـد، إلا أن الواقـع يقـول أيضـا أن بيفو احتفظ بجمهـوره ولم يفقـده أبـدا، كمـا لم يفقد هـو الشغف بالمهنـة واشتبك مبكرا مع مواقع التواصل الاجتماعى وأطلق عنـد دخول تويتر صيحتـه الشهيرة «من الآن يجب على الصحفيين ألا يتوقفوا عن التغريد».

كمـا أنـه تحـول رغـم توقفـه عـن العمـل التلفزيونى إلى مؤلـف لعدد مـن الكتب الناجحـة وأبرزها (كتاب حياتـى) كتابـه الذى ترجم إلى اللغـة العربية بعنوان (مهنـة القراءة) وصدر عن «منشـورات تكوين» وضم مراسلاتـه وحواراتـه مـع المـؤرخ بيير نـورا والتى دارت حـول تجربته فى الصحافـة التلفزيونية بشكل أساسى.

وتقـدم الحـوارات التـى تضمنها الكتـاب دليلا عمليا يجـب أن يسترشد به من يرغب فى احتراف الصحافة الثقافيـة، فهـو أقـرب إلى بيـان عملى علـى معلم، فقد دمـج الرجـل سيرتـه الذاتيـة مـع مهنتـه وروى دون حـرج الكثير من المواقـف الطريفة وجمع الخيبات مع النجاحات والكوارث من دون خجل أو مبالغة، لأن كل شىء كان على الهواء مباشرة.

أتاح بيفو للقارئ فرصة الدخول إلى مطبخه والتعرف على وصفـة لصناعة النجاح، وأعطـى إجابات مبكرة لأسئلـة تزايـدت خـلال السنـوات الأخـيرة، وكشف الكثـير من الأسرار حول ظاهـرة الكتب الأكثر مبيعا، وتحدث من واقع خبرة مذهلة عن فن صناعة الحملات التى تصاحب الكتب وتصل بها إلى الجوائز ومنصات التتويج، وفى ظنى أن الدرس الأهم فى الكتاب يتعلق بواجبات المحرر المحاور ودوره فى تطوير الحوار.

لم يخجـل بيفـو فـى كتاباتـه مـن الاعـتراف بنقص موهبتـه فى الكتابـة الأدبيـة، كما لم يتوقـف أبدا من السخريـة مـن فشل الروايـات التى كتبهـا ولم تحقق النجـاح وظل فخورا بنجـاح كتبه التـى استندت إلى تجاربـه التى أحبها الناس ومنح الثقة من أجلها وهى ثقـة أصبح مـن الصعـب منحها لغيره فـى زمن التيك توك حيث كل شىء إلى زوال.

برنار بيفو: أشياء من ذاكرة مبعثرة

إسكندر حبش

مهما كانت زاوية الرؤية التي نظرنا بها إلى برنار بيفو، الذي غيّبه الموت في ٦ مايو/ أيار الحالي عن عمر يناهز الـ ٨٩ عامًا، إلا أنه لا يمكننا إلا أن نعترف بأنه كان لعقود طويلة ظاهرة حقيقية في عالم الكتاب والثقافة الفرنسيين، إذ استطاع بيفو أن يؤسس حضورًا خاصًا قلّما عرف غيره من صحافيي الصفحات الثقافية والتلفزيون أن يجدوه. كان في استطاعته فعلًا أن يصنع «المطر والصيف» في سوق الكتاب، بفضل برنامجه التلفزيوني «أبوستروف الفواصل العليا، الذي قدمه بين عامي ١٩٧٥ و١٩٩٠ على قناة «أنتين»)، ومن ثم برنامج «بويون دو كولتور» طبخة ثقافة، الذي بثته القناة عينها بعد أن بدلت اسمها إلى «فرنسا ٢» (France ٢) بين عامي ١٩٩١ و٢٠٠١.

كان بيفو يومها، ومثلما صرح مرارًا، يقرأ ما بين عشر ساعات، واثنتي عشرة ساعة، يوميًا، والأهم أنه عرف كيف يتحدث عن الأدب لعامة الناس. إذ كانت فكرة البرنامجين الأساسية هي معرفة كيفية جذب الناس (المشاهدين) إلى القراءة. نجح برهانه، الذي ارتكز أساسًا على طبيعته الطيبة والواضحة، وجانبه المفعم بالحيوية. اكتشف المشاهدون فيه شخصًا محبًا للنبيذ، وخبيرًا فيه (علينا أن لا ننسى أن مسقط رأسه هي منطقة «البوجوليه»، التي أعطت اسمها لنوع من أنواع النبيذ الفاخر)، كما أنه عاشق لكرة القدم، ومطلع على أدق تفاصيل اللعبة، والأندية، ومتابع لها (وثمة صور تظهره أيضًا بلباس المنتخب الفرنسي وهو يلعب الكرة مع اللاعبين في مركز التدريب). ربما ذلك كله جعله قريبًا من المشاهدين، الذين بدأوا ينتظرونه فعلًا مساء كل جمعة، وهو اليوم الذي كان يعرض فيه برنامجه، حتى وإن جاء في وقت متأخر نسبيًا. ربما أهم الميزات التي جعلته قريبًا من الجميع أنه لم يظهر متحذلقًا أبدًا، بل بقي محافظًا على تواضعه وابتسامته على الرغم من أن «عروضه» (فيما لو جاز القول) كانت تجتذب ما يقرب من ٦ ملايين مشاهد في السهرة الواحدة. وعلى الرغم من أنه أثر على ثلث مبيعات الكتب في ثمانينيات القرن الماضي، إذ ثمة إحصائية نُشرت يومها أن الكتاب الذي يمر في حلقة لبيفو، يُباع منه ٣ آلاف نسخة في صبيحة اليوم التالي. لدرجة أن المؤرخ الكبير بيير نور، كتب في مجلة «لو ديبا» (التي كان يترأس تحريرها، وهي من أهم وأكثر المجلات الفكرية الفرنسية رصانة) كتب عن «ظاهرة بيفو» قبل أن يعود ويحاوره في كتاب كامل هو «مهنة الكتابة».

***

ولد برنار بيفو في مدينة ليون عام ١٩٣٥، وبدأ حياته المهنية صحافيًا في جريدة «لوفيغارو» اليومية، قبل أن يطلق مجلة «لير» (الشهرية) في عام ١٩٧٥ مع جان لوي ـ سيرفان شرايبر؛ في ذاك العام أيضًا بدأ برنامجه «أبوستروف» الذي حظي بحضور حقيقي، منذ الحلقة الأولى. هذا الحضور تأكد بقوة، في حلقة ١١ أبريل/ نيسان ١٩٧٥، إذ استطاع بيفو أن يقوم بـ«ضربته الإعلامية الأولى»، حين استقبل الكاتب الروسي ألكسندر سولجنتسين (نوبل للآداب عام ١٩٧٠)، في حلقة عُدّت تاريخية. ومن أسباب هذا الاعتبار أن سولجنتسين لم يتحدث إعلاميًا منذ أن طُرد من «الاتحاد السوفياتي». لكن عاد بيفو واعترف بعد سنوات، في أحد كتبه، أن خطأه في هذه الحلقة كان في دعوة كتّاب آخرين للمشاركة في الحلقة، لذلك منعت «هذه المجموعة من الكتّاب الجامحين» في إعطاء فكرة حقيقية عن مؤلف «أرخبيل الغولاغ»، حيث لم تظهر مكانة سولجنتسين الحقيقية. الإنجاز الثاني، الذي أعقب هذه الحلقة هو ذهاب بيفو للقاء نابوكوف في قصر «مونتروي» (حيث كان يقيم)، ليطلب منه المشاركة في حلقة من حلقات أبوستروف. وخلافًا لكل التوقعات، قبل مؤلف «لوليتا» الظهور على شاشة التلفزيون، ولكن بشرطين: أن ترسل إليه الأسئلة مسبقًا، وأن يكون تحت تصرفه قنينة ويسكي، «متنكرة داخل فنجان الشاي أمام الكاميرات». ونجحت المحاولة في أن تكون الحلقة واحدة من أفضل المقابلات التي تحدث فيها نابوكوف.

أمام ذلك كله، بدا برنامج أبوستروف يفسح مكانة له، في قلب الحياة الثقافية، ولم يعد مجرد برنامج تلفزيوني لتقضية الوقت واستهلاك ساعة من ساعات البث. بدأ الكتّاب الكبار بالتوالي على الظهور أمام الكاميرا: الفيلسوف يانكليفتش (ومعرفته المدهشة بالموسيقى)، مارغريت يورسنار (تشكل الحلقة وثيقة نادرة عن هذه الكاتبة الإستثنائية)، باتريك موديانو (الذي ظهر متلعثمًا وخائفًا، كما عادته لغاية اليوم) رولان بارت، جورج سيمنون ـ وهي حلقة للذكرى ـ تم تصويرها في منزله بمدينة لوزان السويسرية. عديدون هم الأشخاص الذين تمت دعوتهم إلى هذا الصالون الأدبي: من رجال سياسة، ومغنين وفنانين، وممثلين، ورياضيين، لنذكر منهم فرانسوا ميتران، سيرج غينسبورغ، جين فوندا، محمد علي كلاي... وإذا استعملنا تعبير «كاستينغ»، أي كاستينغ أعظم بالنسبة إلى برنامج تلفزيوني من هؤلاء الذين يجعلون الناس تحلم بأشياء كثيرة.

ثمة كثير من المشاهد بقيت عالقة لغاية اليوم في الذاكرة. من يستطيع أن ينسى تشارلز بوكوفسكي وهو يغادر موقع التصوير، في منتصف الحلقة، وهو يترنح من السكر (بعد أن ابتلع قنينة من النبيذ الأبيض)، إذ أراد الكاتب الأميركي أن يضع يده على فخذ الكاتبة التي كانت موجودة في الحلقة، وحين علا الصراخ، لم يجد بُدًّا من المغادرة، ليقول بيفو ـ الذي بدا عليه الارتياح من رحيل بوكوفسكي ـ جملة بقيت حاضرة لفترة طويلة في الأوساط الثقافية: «أخيرًا، حتى أنه لا يستطيع تحمل قنينة، هذا الكاتب الأميركي».

ربما شكلت المشاهد هذه عددًا من «اللحظات الكبيرة» في حياة أبوستروف، وفي حياة بعض المشاهدين، لكنها في الواقع (في رأيي) ليست اللحظات الأكثر عمقا. ثمة بعض السحر حين نرى ونشاهد حلقته مع الممثلة الأميركية جين فوندا «التي وقعت في غرامها ما إن دخلت إلى استديو التصوير»، كما مارغريت دوراس وهي تتحدث في حلقتها الخاصة (صُورت في منزلها في منطقة النورماندي) عن «درب الجلجلة» الذي مشته للتخلص من سموم الإدمان على الكحول. أو أيضًا حلقة جورج دومزيل (عالم فقه ولغوي فرنسي ومؤرخ للأديان وعالم أنثروبولوجيا؛ ٤ مارس/ آذار ١٨٩٨ ـ ١١ أكتوبر/ تشرين الثاني ١٩٨٦)، وكأننا كنّا أمام شيخ جليل صاحب طريقة، إن جاز القول، وعلى الرغم من أنه يقرأ ما يقارب السبعين لغة (نعم!!!) فقد بقي متواضعًا «أمام عظمة الثقافة» ـ (كتب بيفو عن ذلك كله، في أحد أعداد مجلة «لير» القديمة، بعنوان «اللحظات الكبيرة») ـ أو حتى أمام الكاتبة الشابة (يومها) فيرجيني ديسبانتيس، التي كانت حاضرة في إحدى الحلقات مع روايتها الأولى، حين صرخت، للدلالة على «حضورها المختلف»، قالت: «أريد مزيجًا من القوة الجنسية والاجتماعية الآن». وأيضًا هيرفيه غيبير، الذي تحدث عام ١٩٩٠ عن مرضه بالسيدا (الإيدز). جاء ليشهد بأمانة مذهلة، وبلطف، عن الألم الذي ينخر داخله. كان غيبير يومها قد أصدر كتابه «إلى الصديق الذي لم ينقذ حياتي»، وقد شكل الكتاب أولى الشهادات عن شخص كاتب مصاب بالإيدز. ولم نعرف، إلا لاحقًا، بعد سنوات قليلة، أن «الصديق» الذي نقل إليه هذه العدوى (والذي لم ينقذ له حياته) لم يكن في الواقع سوى الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو.

لعب برنامجا «أبوستروف»، و«بويون دو كولتور»، مع بيفو، قوة إرشادية كبيرة، إذ مارسا تأثيرًا لا يستهان به على القارئ. أصبح البرنامج نقطة انطلاق فعلية وبخاصة للروائيين الجدد، الذين كانوا ينشرون كتبهم الأولى. بمعنى آخر كان الظهور إلى جنب بيفو، نوعًا من أنواع التكريس. هكذا بدت الحلقة التي استقبل فيها بيفو «الفلاسفة الجدد» في السبعينيات (برنار هنري ليفي وعصابته)، وفي عام ١٩٩٦، مثلًا، حين ظهرت آن ـ لو ستاينغر، مع كتابها الأول «مرض أن تكون ذبابة». كانت شبه مجهولة تقريبًا. بعد أسبوع أفردت لها الصحف والمجلات الفرنسية صفحات من النقد الإيجابي.

شبه الاحتكار هذا، إن صحّ القول، أثار عددًا من الانتقادات؛ في عام ١٩٨١ مثلًا اتهم ريجيس دوبريه، الذي كان يومها مستشارًا ثقافيًا للرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران، برنار بيفو، بممارسة «ديكتاتورية» في سوق الكتاب. بعد تلك الحادثة بعامين، أشارت دراسة أجراها معهد إيسوس لاستطلاعات الرأي إلى أن ثلث مشتريات الكتب في فرنسا تتأثر بشكل مباشر ببرنامج أبوستروف، وفق ما ذكرته صحيفة «لوموند». ومن دون شك انسحبت هذه الهالة على غالبية البلدان الفرنكوفونية، الناطقة باللغة الفرنسية.

لكن أيضًا علينا الاعتراف أن ثمة حلقات لم تكن موفقة. وبالتأكيد، يعود ذلك إلى الضيف الذي يشطح في خطابه، ربما. تحدث بيفو مرة عن فشل حلقته التي أرادها تحية للمرأة في يومها العالمي، لكن دلفين سيريغ، وكارول روسوبولوس، أظهرتا كراهية كبيرة للنساء، دفعت الجالسين للتعبير عن اشمئزازهم. أيضا، عبّر بيفو، قبل سنوات قليلة، عن أسفه وندمه الشديدين لأنه دعا غابرييل ماتزنيف في عام ١٩٩٠، المشتبه به في إساءة معاملة الأطفال. كان الكاتب يقدم روايته الجديدة Amours décomposées، وقد افتخر مطولًا بمغامراته مع «الفتيات الصغيرات»، فما كان على دينيس بومباردييه، كاتبة مشاركة إلا أن قالت: «يبدو لي السيد ماتزنيف شخصًا مثيرًا للشفقة»، وكادت تشتعل «الحرب» فوق بلاتوه التصوير.

على الرغم من انتهاء حلقاته لتدخل في الذاكرة، إلا أن بيفو بقي نشطا للغاية، مثلما بقي مدافعًا عن «الإملاء». إذ أنشأ عام ١٩٨٥ بطولة «الإملاء» الفرنسية، وقد أصبحت تعرف لاحقًا باسم «ديكو دور» (Dicos d›or). إملاءات هائلة، فشل فيها عدد من الكتّاب، الذي شاركوا فيها، ما دفعه مرة إلى تحية المحررين في دور النشر الذين يصححون أخطاء الكتّاب الإملائية. بين عامي ٢٠١٤ و٢٠١٩ ترأس أكاديمية غونكور (التي تمنح جائزتها الشهيرة في الرواية، حيث انتخب عضوًا في لجنتها عام ٢٠٠٤، وتنازلت رئيسة اللجنة إدموند شارل رو عن منصبها لصالحه عام ٢٠١٤) مثلما لم يتوقف عن كتابة مراجعاته النقدية في صحيفة «جورنال دو ديمانش».

***

لو قيّض لي أن أنهي هذه الكلمات بقصة شخصية، لاستعدت الذاكرة: أتاح لي عملي الصحافي أن ألتقي ببرنار بيفو مرات عدة، الأولى كانت في بداية التسعينيات، حين جاء إلى بيروت، بعد توقف الحرب، لتصوير حلقة من «بويون دو كولتور». كانت بيروت تنهض من حربها ودمارها، لتدخل في أحلامها الكثيرة. كان مشروع إعادة الإعمار قد بدأ. فأطلق على حلقته ـ التي استضافت عددًا من الكتّاب اللبنانيين، وصوّرت في حديقة «قصر الصنوبر» (مركز إقامة السفير الفرنسي) ـ عنوان «بيروت أكبر ورشة إعمار في العالم». لم يكن المقصود إعادة الإعمار المادي فقط، بل إعادة الإعمار الفكري الذي باعد بين اللبنانيين.

المرة الثانية كانت في عام ٢٠٠٠. كنت في باريس أحتفي مع الكاتب الصيني غاو زينغ يان (وناشرته الفرنسية وأصدقائهما) بفوز غاو بجائزة نوبل للآداب. كنت أعرف غاو من منتصف التسعينيات، بعد أن كتبت عنه مقالة في «السفير» (قبل نوبل بسنوات). ولهذا السبب دعتني الناشرة لحضور الاحتفال (وإجراء مقابلة معه) بكوني من أوائل الذي انتبهوا لكتابات غاو، وكتبوا عنه بالعربية. تشاء الصدف أن يدعى غاو لتصوير حلقة مع بيفو الذي دعاني بدوري لحضور تصوير الحلقة. وحين طلبت من بيفو، بعد الحلقة، إجراء مقابلة معه، اعتذر بلطف كبير، لأن وقته لن يسمح له، في الأيام القليلة المقبلة، لارتباطه بعمل ما، مثلما كنت سأغادر العاصمة الفرنسية بعد يومين، واعدًا إياي بذلك في لقاء مقبل إن حدث. هذا اللقاء المقبل حدث بعد خمس سنوات، في صالون الكتاب بباريس عام ٢٠٠٥، حين التقيت به في أحد ممرات الكتب، وذكرته بالموضوع. قال نتحدث غدًا على العشاء. وهذا ما حدث.

ربما اللقاء الأهم، من الناحية العملية، مع بيفو كان في عام ٢٠١٢، حين اتصلت بي مارتين جيليه (المسؤولة يومها عن معرض الكتاب الفرنكوفوني ببيروت) قائلة يجب أن نتحدث. التقينا مساء ذلك اليوم، وأخبرتني أنها ترغب في نشاط ما، مختلف، بمناسبة العيد العشرين لمعرض بيروت، وتتمنى أن أفكر معها. أول ما طرأ على بالي كان التالي: «لتدعُ لجنة غونكور كي توزع الجائزة من بيروت». بعد يومين قالت لي على الهاتف: «سيأتون لإعلان اللائحة النهائية من بيروت، لأن قانونهم يحتم عليهم إعلان اسم الفائز من فرنسا». وفي لقائنا ذلك المساء طرأت على بالنا الفكرة التالية، لماذا لا يصار إلى «اختراع جائزة» أدبية لبنانية لها ارتباط بغونكور. وأيضًا، بعد يومين، قالت رحبوا بالفكرة، وقد اقترح بيفو أن تكون على غرار الجائزة التي تمنح في بولندا، وعلى علاقة بغونكور. أنشئت الجائزة، بالتعاون بين المركز الثقافي الفرنسي والوكالة الفرنكوفونية وأكاديمية غونكور. هنا التقيت ببعض أعضائها، وعلى رأسهم بيفو، الذي كان سعيدًا بذلك. تم تعييني «نائب رئيس دائم» (لا أكتب بالفرنسية، على أن يكون رئيس الدورة مختلفا كل سنة، ويكتب بالفرنسية). لكن المغامرة لم تستمر، إذ استقلت بعد عدة أشهر من توزيع الجائزة الأولى، التي جرت في بيروت، وكان من ضمن وفد الأكاديمية بيفو، وديدييه دوكوان، وريجيس دوبريه، وإدموند شارل رو، والطاهر بن جلون... وغيرهم.

كان اعتراضي لسببين: اختيار اسم «لائحة غونكور ـ خيار الشرق»، وقد عللت وجهة نظري بأن اسم خيار الشرق قد يتيح مستقبلًا لدولة الاحتلال أن ترغب في المشاركة، وثانيًا اعتراضي على قرار الرئيس الفرنسي أولاند، ورئيس وزرائه فابيوس، بقصف دمشق بالطائرات يومها (يمكنكم مراجعة ذلك على https://al-akhbar.com/Literature_Arts/٥٨٠٤٣).

ما يهم من كل ذلك، الآن، هو لقاءاتي مع بيفو. إنها الذاكرة التي تعود. وكأننا نعيش لكي نتذكر. ربما كان الشاعر التريندادي ديريك والكوت محقًا حين قال: «نعيش نصف حياة، أما النصف الثاني، فعبارة عن ذكرى». من قال «إن الإنسان من النسيان»؟

• عن موقع الضفة الثالثة

برنار بيفو الصحافي الذي حوّل الأدب إلى مطلب شعبي

سوسن الأبطح

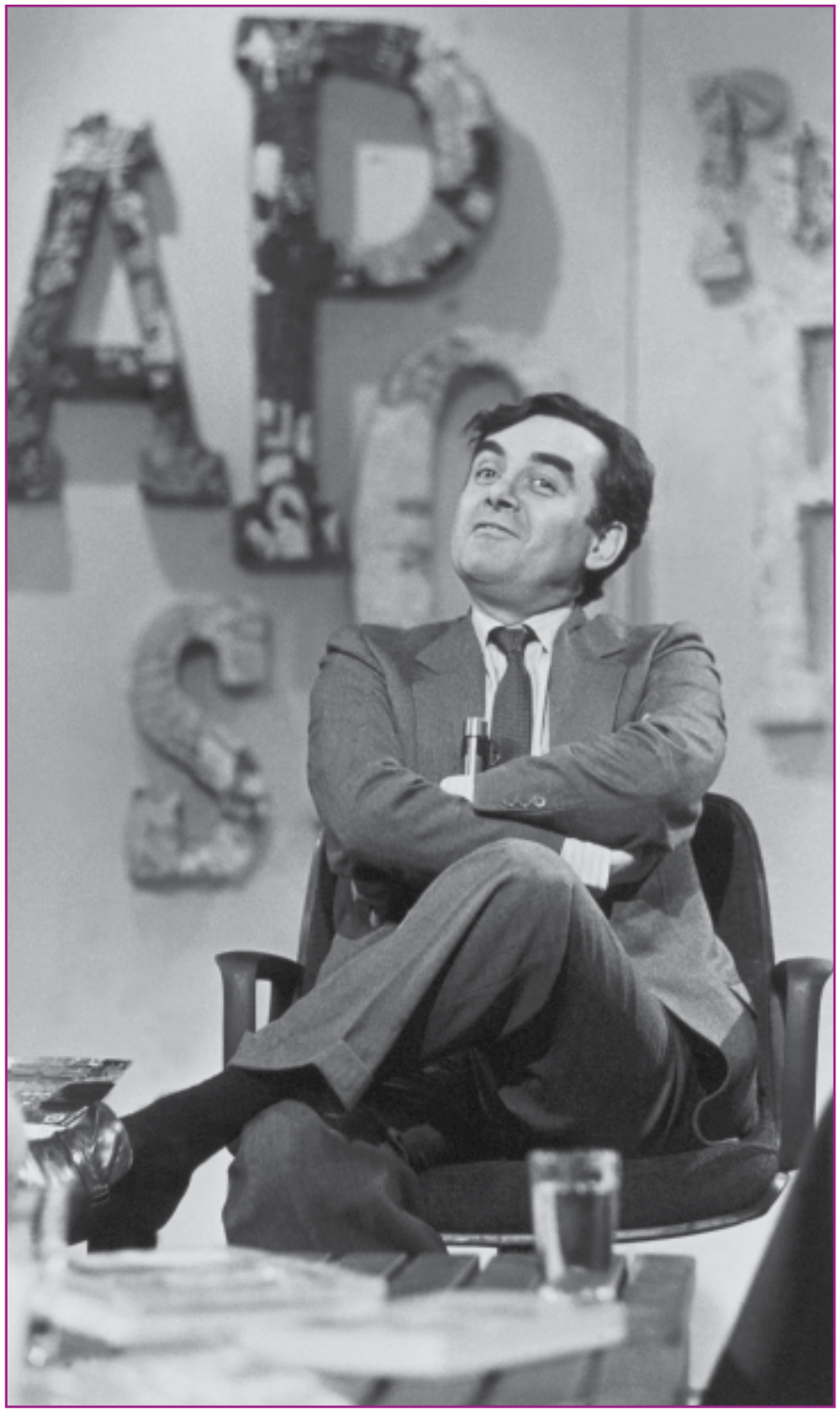

« برنار بيفو أسطورة حقيقية في الحياة الثقافية الفرنسية»، هكذا وصفه صديقه الصحافي فيليب لابرو، إثر الإعلان عن خبر وفاته يوم الاثنين الماضي عن عمر ٨٩ عاماً قضاها لا شاغل له إلا الكتب ونصوصها، رغم هواياته المتعددة التي جعلها جزءاً من كتاباته واهتماماته النقدية. بوجهه الطفولي المحبب، وحاجبيه الكثيفين، وضحكته اللمّاعة، وحسّه النقدي، ونظارتيه اللتين يعلقهما بين الحين والآخر على أرنبة أنفه، أطل بيفو على المتفرجين الفرنسيين، طوال أكثر من ربع قرن، في موعد أسبوعي شيق، تسمرت من أجله الملايين أمام الشاشات، لتكتشف مع كل حلقة تبث، أفضل الإصدارات الجديدة، وأنجح الكتب، وتتعرف على المؤلفين الناشئين، وتتابع ما يقوله كبار الأسماء من المفكرين والأدباء.

بعد برنامجه «افتح مزدوجين» الذي لم يدم طويلاً، ولد برنامجه التلفزيوني الشهير «أبوستروف» عام ١٩٧٥ وفق تصوره الخاص. هذا البرنامج الذي سيتحول بفضل براعة مقدمه وخفة ظله إلى واحد من أجمل وأرقى البرامج الثقافية التي عرفها البث التلفزيوني، وسيصبح مطلوباً حتى في دول لا تتحدث الفرنسية وتلجأ لعرضه مترجماً. نهاية الأسبوع، تحديداً مساء كل جمعة، عند التاسعة والنصف مساء، لحظة ذروة المشاهدة، التي غالباً ما تعطى لبرامج المنوعات الترفيهية، كان برنار بيفو يطل من القناة الثانية ليتحدث عن الكتب والأدب ويستضيف كتّابها، ويحاورهم حولها. أمر ربما لم يكتب لبرنامج ثقافي في تاريخ التلفزيون. الإقبال الشديد على البرنامج وجماهيريته العريضة، جعلته يستمر ١٥ عاماً محلقاً، ويصل عدد حلقاته إلى ٧٢٤ حلقة. كان المؤلفون يعلمون أن الحظ يبتسم بقوة لمن يستضيفه برنار بيفو. لذلك حتى من لا يتحدث الفرنسية بطلاقة، كان يقبل التحدي، ولا يخلف موعداً مع المقدم وبرنامجه الشهيرين. فضيوف حلقة مساء جمعة من «أبوستروف»، هم الذين تتصدر كتبهم واجهات المكتبات في اليوم التالي. وبمرور الوقت، صار لـ«أبوستروف» ركن خاص في المكتبات، للباحثين عن المؤلفات التي ناقشها بيفو في إحدى حلقاته. البعض اتهمه بالتسلط، بسبب قدرته الفائقة على الترويج لكتاب أو كتب بعينها. فالمكانة المعنوية العالية التي حظي بها لدى جمهوره، تسمح له بالتأثير على القراء. لكن الحقيقة أن الرجل لم يبحث عن السلطة، وإنما جاءته بسبب جاذبيته ومهارته في التقديم، وبراعته في طرح الأسئلة وإدارة الحوار مع عدد من الكتاب في جلسة واحدة، وأحياناً مع ضيف واحد يستحق حلقة من أجله. امتلك بيفو مرونة في التعاطي مع نصوص الكتب التي يقدمها، لم تعط لغيره، وقدرة على التبسيط، واستخدام لغة سهلة، تصل إلى عامة الناس مهما كان الكتاب صعباً. لم يكن برنامج بيفو هو الوحيد عن الكتب، ولا المتفرد على الشاشات الفرنسية الثلاث حينها، لكنه بقي بلا منافس حقيقي، لما تمتع به صاحبه من حيوية وطرافة مع قدرة على استثارة حوارات نابضة ومثيرة، مع ضيوف يجلسون متحلقين، تحيط بهم المكتبات.

قيل إن بيفو، بأسلوبه في «أبوستروف»، وطريقة تعاطيه مع الكتب والضيوف، ابتكر شكلاً جديداً لم يكن معهوداً في البرامج الثقافية. قبله كانت الحوارات بليدة، باردة، وجدية إلى حد مضجر، ومعه اكتسبت صلتها بالحياة والناس، مما جعل متابعي بعض الحلقات يتجاوزون الستة ملايين متفرج.

بعد توقف «أبوستروف» مباشرة، عام ١٩٩٢، ابتكر بيفو، الذي لا تهدأ مبادراته، برنامجاً آخر هو «بويون دو كلتور» الذي سيكون بمثابة استمرار لما سبقه، وسيبقى بيفو متربعاً على عرش البرامج الثقافية الفرنسية، في مرحلة كان فيها للكتاب سطوة، وللمؤلف قيمة، وللقراءة جمهور عريض. وبذلك كان بيفو مؤثراً من خلال شاشة التلفزيون، قبل أن يولد المؤثرون على وسائل التواصل، لأنه امتلك القدرة على إلهام جمهوره، كما كان له كبير التأثير على متفرجيه باختياراتهم للكتب، لا بل وفي دفعهم للقراءة وتحفيزهم على الشراء، وصناعة الرأي العام، وتشكيل الذوق الأدبي.

وقد حرص بيفو على أن يقدم برنامجه مباشرة على الهواء، رغم التحذيرات من المخاطر. وقد حدثت له بالفعل العديد من المواقف المحرجة والمزعجة، منها عندما افتخر الكاتب غابرييل ماتزنيف بحياته الجنسية التي مارسها مع قاصرين. وهو ما أثار المتاعب لبيفو.

السؤال ليس عن أسماء الضيوف الكبار الذين استضافهم بيفو، بل عن هؤلاء الندرة الذين أفلتوا من برنامجه. فقد استضاف رولان بارت، أمبرتو إيكو، كلود ليفي شتراوس، بيار بورديو، مارغريت دوراس، فلاديمير نابكوف، لو كليزيو، مارغريت دوراس، باتريك موديانو، فرانسواز ساغان، وسياسيين ورؤساء جمهوريات، أبرزهم فرانسوا ميتران، وكذلك سينمائيين ومغنين ورياضيين.

لكن طريقة بيفو في جعل الأدباء في متناول كل الناس، لم ترق للبعض ومنهم ريجيس دوبريه عندما كان مستشاراً لفرانسوا ميتران، رئيس فرنسا حينها، واتهم بيفو عام ١٩٨٢ بالسيطرة على الحياة الفكرية الفرنسية. لكن بيفو رغم انزعاجه، لم يقصّر في الرد وقرر مواصلة مهمته غير عابئ بما يقوله مستشار الرئيس. أما الفيلسوف جيل دولوز فعبّر عن رأي أكثر قساوة، حين عدّ أن برنامج برنارد بيفو، يشكل «الحالة الصفرية في النقد الأدبي»، وهو بطريقته التبسيطية المتلفزة «حوّل الأدب إلى عرض للممنوعات». وهو اتهام جائر، وثبت بعده عن الواقع، ليس فقط للفراغ الكبير الذي تركه بيفو في ما يتعلق ببرامج الكتب والثقافة، بعد اعتزاله الشاشة، ولكن أيضاً لأن حوارات بيفو مع ضيوفه اتسمت بالعمق الشديد، وبقدرته اللافتة على جعل الضيف يتكلم ويبوح، كما لا يفعل مع أي محاور آخر. وهنا يكمن سرّ بيفو الذي لا يزال يحيّر ويثير الأسئلة.

حرص بيفو رغم مشاغله التلفزيونية ومسؤولياته الجمة على ألا يقطع صلته بالصحافة المكتوبة. فقد كان له عمود باستمرار في إحدى المطبوعات. في السبعينات، كان كاتباً في مجلة «لو بوان»، ومنذ مطلع التسعينات بدأ يكتب في «جورنال دو ديمانش». كما أنه لم ينقطع عن تقديم البرامج الإذاعية، أو الإطلالة في تعليقات أسبوعية على الأثير.

لا غرابة أن يصفه صديقه فيليب لابرو بأنه «أحد أهم الشخصيات في الحياة الثقافية الفرنسية طوال أربعين عاماً» وبأنه «أعظم مدرّس للأدب عندنا، على الإطلاق».

فقد تعددت مجالات عمل بيفو، في المكتوب والمسموع والمرئي، ومع دور النشر والجوائز، وكل ما له صلة بالكلمة. فقد عدّ دائماً أن الكلمة هي المحرك، ولها خصص العديد من كتبه، التي طالت ميادين مختلفة، منها «قاموس عشاق النبيذ»، وكان من الولعين بهذا المشروب، و«كرة القدم باللون الأخضر» هذه الرياضة التي شكلت عشقه أيضاً إلى جانب الطبخ الذي كتب حوله، واستضاف نجومه. أصدر في بداياته رواية بعنوان «الحب الرائج»، كما جمع مقالات، ونصوص الإملاء التي عمل عليها، وكتب مذكراته، ورواية من وحي شيخوخته حملت عنوان «لكن... تستمر الحياة». ما يزيد على ٢٠ كتاباً تضاف إلى إنجازاته الثقافية.

لم يخب وهج برنار بيفو رغم اعتزاله تقديم البرامج التلفزيونية، فقد بقي ضيفاً محبباً، يحلّ على الشاشة عند كل إصدار جديد له، أو مناسبة، وبقي هذا النجم الأدبي بهي الطلى، مرح الروح، حاضر النكتة، متواضعاً، طريفاً، قريباً من القلب، إلى أن أعياه المرض، وتوارى عن أنظار جمهوره، عام ٢٠٢٢، وقد علم أن المرض هذه المرة لن يهادنه طويلاً.

بيفو فأرة الورق، وقاضم الكتب، دخل عالم الإنترنت برحابة. كان نشيطاً على «تويتر»، وشارك متابعيه أفكاره ومتعه الأدبية، وكانت الردود المعجبة تأتيه سخية ومحبة، تليق بمساره المكلل بالشغف والحب وعناق المعنى. وبوفاة بيفو هذا الوحش القارئ تطوى صفحة في عالم الأدب قد تصعب استعادة ما يشبهها. فالكتب لم تعد ورقاً كالذي كان يقلبه بشهية مقدم «أبوستروف» وهو يبحث عن المعلومة، والقراء تغير مزاجهم، وربما أن الأدب أيضاً تغيرت وظيفته.

• عن صحيفة الشرق الاوسط

برنار بيفو والقوة الناعمة

كه يلان محمد

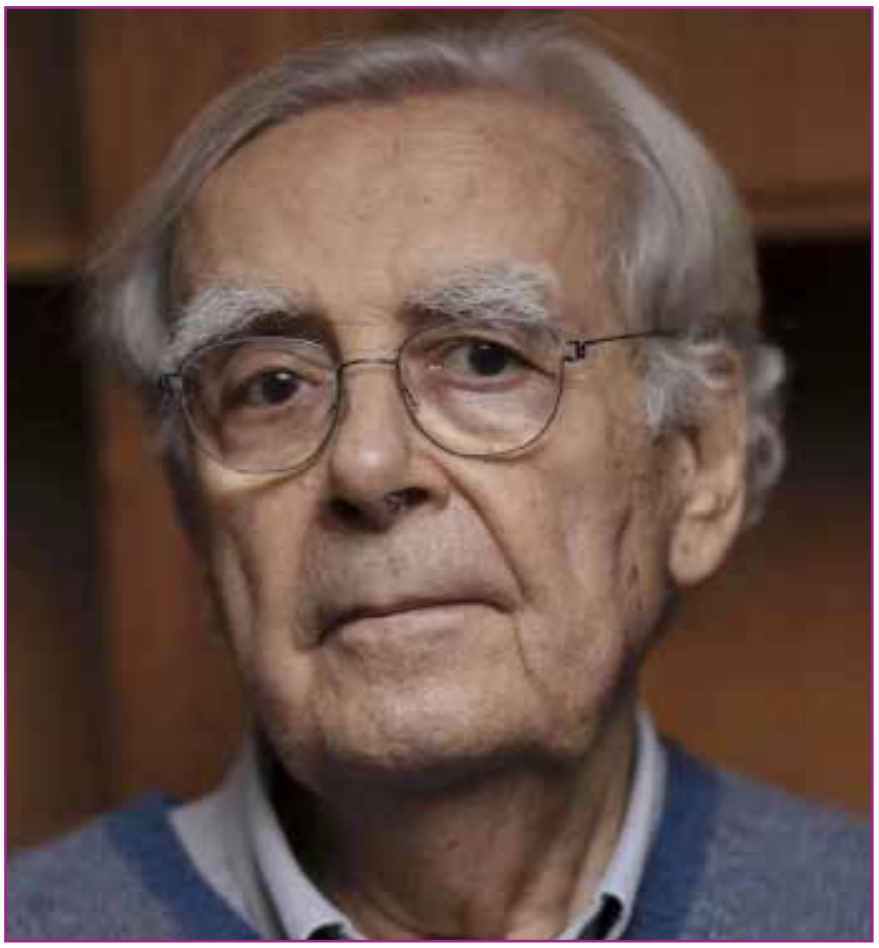

الاهتمام بالثقافة والفنون من مقومات أساسية في برنامج وسياسة بعض بلدان العالم، ويتمُ التعويل على القطاع الثقافي بوصفه آليةً للتعبير عن العمق الحضاري والتاريخي، ودعم المفاهيم الفكرية والبعد الكوني في القيم المحلية، كما يلعبُ هذا المجال الحيوي دورا مؤثرا في الترويج لنمط حياة الشعوب وتسويق رموزها، بحيثُ تتحولُ إلى رأسمال حضاري يعبرُ الأنطقة المحلية، لذا فإنَّ البيئات الحيويةً لا تجازف برمي أوراقها على طاولة الطبقة السياسية، بقدر ما تحين الفرص لإنشاء منصات متعددة ترفدُ سيرورة الإبداع وتجديد الأنساق والبنى العقلية، وتحمي الأذواق من التبلد. ومن المناسب الإشارةُ إلى ما يذكرهُ الكاتبُ العراقي علي حسين في مؤلفه «في صحبة الكتب»عن موقف يجمعُ بين ثلاث شخصيات من خلفيات فنية وسياسية، إذ شاءت الصدفُ أن ترتادَ الفنانة الفرنسية بريجيت باردو مطعماً وجد فيه كل من بيكاسو ورئيس وزراء فرنسا هنري كويويل، فأراد الأخير دعوة الفنانة إلى مائدته متزامنا مع إشارة بيكاسو لها بأن تنضم إليه، فاختارت باردو الانصراف عن رئيس الوزراء ذاهبة إلى الرسام، مبررة تصرفها بأنَّ فرنسا يمرُ عليها الكثير من رؤساء الوزراء، لكن هناك بيكاسو واحدا لن يتكرر.
هذه القصة ربما تبدو بسيطة في الظاهر، غير أنها تكشفُ عن الوعي بقيمة الفن وتمثلاته الفاعلة، في اكتساب موقع الريادة في سياق التسابق الحضاري، والأهم على هذا الصعيد هو، وجود إرادة هادفة إلى صناعة القرار بشأن البرامج المحركة للحس المعرفي، وتطويع الآليات الفعالة لبناء الخطاب الثقافي.

مهنة القراءة

تندرجُ وسائل الإعلام ضمن المعطيات المؤثرة في تشكيل ذائقة المتلقي، وهذا ما تستشفه من حديث برنار بيفو عن تجربته مع تقديم البرامج الثقافية على القنوات الفرنسية، إذ استقطب جمهوراً واسعاً من خلال «أبوستروف» و«حساء الثقافة» واستضاف عدداً كبيراً من مشاهير الأدب والفن والسياسية في حلقات دسمة بالنقاش والاكتشاف، وفاجأ جمهوره بدعوة المهمشين الذين لا ينتمون إلى عالم الأدب، ولا إلى الفلسفة، وظهر على منبر برنامجه سارق البنوك سباغياري ونجمة السينما الإباحية بريجيت لاهاي. ومن المرتقب أن تثير هذه المحتويات الإعلامية ردود الفعل الساخطة في بعض الأحيان. أياً يكن الأمر فإنَّ ما يجدرُ بالتوقف عنده أكثر في الحوار الذي يدور بين الأكاديمي والمؤرخ بير نورا وصديقه بير ثيفوا، نشر بين غلافي كتاب بعنوان «مهنة القراءة»، حيث يكون الأخير على كرسي الاستجواب، هو رؤية بيفو للقراءة وما يجبُ أن يتمتعَ به مقدم البرنامج الثقافي من مواصفات محددة حسب ما يفهمُ من خبرته في هذا المجال، إذ تتحولُ القراءةُ إلى المهنة ويتطلبُ ذلك تكريس الوقت، فكان بيفو يقرأ عشر ساعات في اليوم، أي بمعدل خمسة كتب أسبوعيا، وبرأيه إذا لم يقرأ المحاورُ الكتبَ فإنه يدور في دوامة أسئلة نمطيةً، ما يعني أنَّ الحوار لا يتطورُ، ويكونُ الأمرُ مخيباً للآمال بالنسبة للطرفين المؤلف والجمهور.
ومن المعلوم أن شعبية البرنامج عبرت حدود فرنسا، فكان السؤال الذي يواجه به بيفو في كل مكان هو لماذا «لا يوجد في بلدنا برنامج مثل أبوستروف؟» فكان لبنان المكان الذي استقبل فيه أوبستروف بحماسة كبيرة.
عطفاً على ما سبق فإنّه يلفت الانتباه إلى ضرورة عدم تحويل البرنامج إلى حلبة للصراع بين المتخاصمين، ويبدو المقدمُ متكافئاً في معرفته بالضيف، لأنَّ ذلك يخلف الشعور بالتهميش لدى الجمهور. ويوافق بيفو ميلان كونديرا في قوله إنَّ قوة الصحافي لا تستندُ إلى الحق في طرح السؤال، بل في الحق في طلب الإجابة. ويرى أنَّ من المهم أن لا يكون الضيف في البرامج الثقافية مطالبا بإطلاق الأحكام على منجزه، بل يمكنهُ تقديم المفاتيح كاشفا عن طقوس تكوينه، قطعاً ما يقولهُ المؤلف بشأن عمله لا يسحبُ الكلمة من النقاد. والحال هذه فإنَّ المقابلة الذكية تهدفُ إلى الحصول على معلومات واعترافات عن المؤلف وطريقة كتابته. على الرغم من درايته بالقراءة وخبرته في المبارزات الحوارية لا يحسبُ برنار بيفو نفسه ضمن فئة النُقاد. لأن الثقافة الشاملة هي من متطلبات النقد، كذلك فإنَّ وجود روح استكشافية وقوةُ تحليلية من أدوات أساسية في المسعى النقدي. ويتطرقُ بيفو إلى تأثير مظهر المؤلف على المشاهد، فالأخير لا يطلقُ الحكم على المنجز الإبداعي بمجرد أن يقعِ نظره على صاحبه، بل المظهر الخارجي قد يكون دافعاً لاقتناء الكتب وقراءتها حسب وجهة نظر مقدم أبوستروف.
ومن المتوقع بالنسبة لشخصية إعلامية من طراز برنار بيفو أن يتسابقَ الجميعِ لخطب وده، والاستفادة من منبره، لذلك قاطع كثيراً من الأنشطة واللقاءات التي كان يشاركُ فيها نجوم التلفزيون، تفادياً لسوء استغلال موقعه وبهذا كان يحمي استقلاليته، وبالتالي توفرَ له مزيدُ من الوقت للمُتابعة والقراءة، وفي الواقع أنَّ ما تمسك به برنار بيفو هو بمثابة مبدأ مهني تقومُ عليه مصداقية البرنامج الثقافي، وإذا غابت هذه الرؤية في الإعلام الثقافي تتحولُ المنصاتُ إلى غطاء للتكسب وتصدير العقليات الخاوية.

خارج السرب

التحدي الأكبر للبرامج الثقافية في المرحلة التي كان يقدمُ فيها برنار بيفو أبوستروف، أن الشكوك تسود لدى المفكرين حول التلفزيون ودور البرامج الإعلامية قبل الإدراك بأن السخرية في التلفزيون، ما هي إلا نزوة فكرية، ولم يعد التغافل عن دور وسائل الإعلام في تغيرِ أسلوب الحياة وتعديل السلوكيات الاجتماعية ممكناً، وما رفع من سقف المغامرة بالنسبة لبيفوا، هو عدمِ انتمائه إلى النخبة الفكرية والثقافية، ولم يكن محسوبا على الرعية، أو ما أطلقِ عليه ريجيس دوبراي لفظ «المثقفون الراقون» غير أنَّ ذلك لم يمنع بيفو من اعتلاء منصة النجاح واختراق برج المثقفين ودعوة قامات فكرية أمثال، فوكو وبارت ورونيه جيرار وغلوكسمان إلى برنامجه، وهذا لا يعني صمت الأصوات المناوئة، إذ شنَّ عليه ريجس دوبراي هجوماً عنيفاً، مبدياً استغرابه من الشعبية التي تنافسُ المتاجر الأنيقة والصروح الأكاديمية.
ومن المعلوم أن شعبية البرنامج عبرت حدود فرنسا، فكان السؤال الذي يواجه به بيفو في كل مكان هو لماذا «لا يوجد في بلدنا برنامج مثل أبوستروف؟» فكان لبنان المكان الذي استقبل فيه أوبستروف بحماسة كبيرة. ويتفاجأ بيفو بشعبيته الواسعة في لبنان عندما شارك في فعالية أسبوع ثقافي لبناني في بيروت. أكثر من ذلك فإنَّ إحدى القنوات الجامعية في نيويورك، اشترت حقوق ٤٨ حلقة من البرنامج الأدبي، ما يؤكد تزايد جمهور أوبستروف في ما وراء البحار، إضافة إلى من ورد ذكر أسمائهم سلفاً، فإنَّ بيفو فتح حلقات النقاش مع كل من باتريك موديانو ومارغريت دوراس بوكوفسكي لوكليزيو سولجنتسين وبريجيت باردو. ميتران.. جيسكار ديستان.. كيسنجر، طبعا أن مسيرة بيفو الثقافية، صقلت ذائقته أكثر لذلك ما يقوله بشأن الكتب وإبحاره بين العناوين يفيد المتلقي، فبرأيه أنِ كمية الكتب تتناسب تناسبا عكسياً مع جودتها، لافتاً إلى ضرورة القيام بالنشاط الترفيهي القصير بعد قراءة فصول صعبة تتطلبُ جهوداً للفهم أو الحفظ. يصفُ برنار بيفو الجمهور بفئة أكثر محافظة لا يكون أعجابها بالإعلامي بالمستوى نفسه دائما، حتى لو كانت أدواره متشابهة. يُذكر أنَّ بيفو عمل معلق كرة القدم خلال دورةِ المونديال، إذن تراكمت لدَيه الخبرةُ منذ أن كان مقيماً في ليون، وكان قد نشأ في كنف صاحبي متجر صغير وشغف بكرة القدمِ ولم يحصل على تعليم جامعي عالٍ، ونشرت له رواية وحيدة، مرت مرور الكرام، وذاعتْ شهرته من خلال إنجازاته في الإعلام الثقافي، بحيثُ لا يكون من المغالاة إذن القول إن نشاطات بيفو تقع في دائرة القوة الناعمة لفرنسا، إذ يبلغه أحد السفراء بأن ما فعله من أجل الفرانكوفونية في أمسية واحدة أكثر مما قدمه هو أو زملاؤه خلال أربع سنوات.
ما يضمه هذا الكتاب عبارة عن ذكريات مع أسماء مؤثرة على مستويات متعددة عدا ما يسردهُ بيفو عن العناصر الأساسية في خريطة عمله فإنَّ ما يجذب أكثر هو اهتمام أعلام السياسة بالأدب والفكر في المجتمع الفرنسي.

manarat
www.almadasupplements.com
رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم
رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين
سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق
منارات
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

رحيل برنار بيفو الرجل الذي يُحب الكتب

علي حسين

عندما قرر ان يغادر شاشة التلفزيون عام ٢٠٠١ وصفت الصحافة الفرنسية الأمر بأنه اشبه بـ « حداد وطني «، بعد هذا التاريخ بثلاثة وعشرين عاما يغيب عاشق القراءة تماما عن عالمنا، فقد توفى برنار بيفو عن عمر يناهز ٨٩ عاما.

ظل يردد ان علاقته مع الكتب صارمة جدا: » أنا لا اقرأ وأنا منغرس في نعومة مخملية. لا يبدو لي السرير مناسباً للقراءة الجيدة. يجب أن تكون العجيزة على مجلس صلب، والظهر منتصباً واليدان حُرتين لتقليب الصفحات، والتسطير والتعليق « – مهنة القراءة ترجمة سعيد بوكرامي – برنار بيفو الذي اشتهر ببرنامجه الحواري « الفواصل العليا – أبوستروف « ومن بعده برنامج « حساء الثقافة «، يلخص علاقته بالكتب بجملة قصيرة « عندما تكون الكتب رائعة، فإنها تفوز بسهولة بلقب أفضل صديق للإنسان امام أي مخلوق آخر «.

طوال حياته، كان شغفه الأساسي هو الكلمات. تلك المأخوذة أولاً من قاموس لاروس المصور للصغار، ولا تزال النسخة التي حصل عليها اثناء طفولته تحتل مكانا متميزا في مكتبته ومعها حكايات لافونتين التي ستسحر طفولته التي اتسمت بـ«التربية الدينية القاسية»، وقد عانى منها كثيرا، ورغم ان جده رأى ان ولادته يوم الخامس من آيار عام ١٩٣٥، والذي صادف يوم الانتخابات البلدية، بأنه « فأل حسن «، إلا ان برنار وبسبب عشق برنار لكرة القدم كان يقول للصحفيين انه ولد يوم السادس من آيار، لأن في هذا اليوم فاز فريق فريق أولمبيك مرسيليا بكأس فرنسا.

ولد في مدينة ليون لعائلة تمتهن البقالة، بعد خمسة اعوام على ولادته يقع والده المجند في الأسر، فتضطر العائلة الى الانتقال إلى بيت جده لامه، عام ١٩٤٥ يتم إطلاق سراح والأب لتعود الأسرة الى مدينة ليون. يقرر والده ادخاله مدرسة داخلية كاثوليكية، حيث عانى من دروس الرياضيات والعلوم، فقد كان شغوفا باللغة والتاريخ ومتابعة مباريات كرة القدم. نشأ في عائلة منزمة دينيا، وقد وصف تربيته الاولية بانها منغلقة لا تعرف الرأي الآخر. . شكّلت الكتب عالمه منذ الصغر، وتمتع بذاكرة نفاذة، وكان يجادل الطلبة في المدرسة عن افضل طريقة للجمع بين محبة الكتب وكرة القدم. لم يعرف الوسط الثقافي الفرنسي قارئا بشهية « حسية فائقة « مثله، قال إن علاقته مع الكتب علاقة غريبة: » كلما ازددت حباً للكتب، أبدت الكتب رغبة ملحة للهروب مني، وتدريجيا شرعّت تهجرني وتنأى بعيداً، ثم بدأت المسافة تتسع بين عيني والكتب. في الحقيقة، كنت أنا من يدفعها بعيداً من أجل قراءتها بشكل افضل «. عمل مع والده في محل البقالة وكانت مهمته تسجيل الديون، استغرب الاساتذة في المدرسة من قدرته على حفظ مفردات اللغة قال أن « الكلمات أكلته « منذ ان وجد نفسه مجبرا على دراسة اللاهوت فعوض ذلك بعشقه للكتب. انهى دراسته الثانوية ليلتحق طالبا في الحقوق بجامعة ليون، بعد التخرج لم تستهويه مهنة المحاماة، فقرر ان يدخل دورة لتدريب الصحفيين ليتخرج منها عام ١٩٥٧. تحدث كثيرا عن أن حياته المهنية تدين للصدفة: «كان ذلك في أيلول عام ١٩٥٨، وكان عمري ٢٣ عاماً، عندما تم احتياري للعمل بصحيفة لوفيجار، حدث مثير فللمرة الاولى التي توظف فيها هذه الصحيفة الشهيرة شخصاً صغيراً جداً، وغير معروف «. يترك العمل الصحفي عام ١٩٧٤، في هذه الاثناء كان قد انتقل الى التلفزيون حيث اطلق برنامجه الحواري الشهير « أبوستروف « في العاشر من كانون الثاني عام ١٩٧٥ وسيتابع مشاهدوا التلفزيون رجلاً يرتدي سترة رمادية تذكرهم بمعلمي المدارس، يمسك بيده كتابا وبالاخرى نظارات، يحاول خلق علاقة حميمية بين المشاهدين والكتب، وستشهد حلقات برنامجه مواقف طريفة وصادمة احيانا، ابطالها تشارلز بوكوفسكي المخمور الذي قال عنه برنار بيفو « انه لا يوجد سوي بوكوفسكي واحد «، ومارغريت دوراس التي يصفها بأنها « سخية ومربكة «، و ألكسندر سولجينتسين الذي يردد امنية واحدة « اريد ان ارى وطني قبل ان اموت «، وباتريك موديانو الذي قرر ان يترك كرسيه شاغرا، ونباكوف الذي اصر ان يعرف طبيعة الاسئلة قبل دخول الاستوديو قائلاً: » اكره الارتجال، لم أقل مطلقا عشر كلمات لطلابي ما لم أقم بوزنها وكتابتها بعناية شديدة «، وسيظهر جورج سيمينون وفرانسوا ساغان وورولان بارت، وبورديو، وإيكو، ولو كليزيو، وليفي شتراوس، وحتى الرئيس ميتران، وفي عام ١٩٨٧، يقرر برنار بيفو ان يقوم بمغامرة مثيرة وخطيرة، عندما سافر الى بولندا ليجري مقابلة سرية مع ليش فاليسا الذي كان يعيش تحت الحراسة في بولندا..

عام ٢٠٠٤ اختير عضوا باكاديمية غونكور، كان اول عضو في هذه الاكاديمية يتم اختياره باعتباره عاشقا للكتب وليس كاتبا. وسيترأس الأكاديمية من الاعوام (٢٠١٤ الى ٢٠١٩) بعدها يقرر الاعتزال «ليجد استغلالا حرا وكاملا لوقته مع الكتب «

في السنوات الأخيرة، كان نشطًا للغاية على موقع تويتر، حيث شارك أفكاره وتعليقاته الطريفة وحكاياته مع الكتب والطبخ وكرة القدم مع أكثر من مليون كتابع يكتب في احدى تغريداته. «لقد أحببت القيد المكون من ١٤٠ حرفًا، لقد ذكّرني ببداياتي في الصحافة، عندما تم تكليفي بأبحاث قصيرة!»،. واصل الكتابة، «ليبقى عقلي مفعما بالحيوية والبهجة والفضول»، اصدر عام ٢٠٢١ كتابه الثامن عشربعنوان « لكن الحياة تستمر « يروي فيه الحياة اليومية لرجل تجاوز الثمانين عاما، كان هاجس الموت يطارده بعد تشخيص اصابته بالسرطان، فبرغم حيويته ومرحه إلا انه يعترف بان ازمات قلق كانت تنتابه، صحيح انها عابرة كما يقول لكنها عميقة ويعترف: » بالطبع، الموت هو ثيمة أفكاري السَّوْداوية، الخيط ممدود وبيده المقص» ويضيف: » في مثل سني لا يمكن مخاتلة الموت أو عدم التفكير فيه، ونفكر فيه شباباً أيضاً ولكن عبوراً، نراه أبعد من أن يكون محتملاً» – ترجمة احمد المديني. لكنه لا يستسلم سيجد الخلاص في قراءة موليير والعودة الى زمن مارسيل بروست بروست المفقود، او في رحلة مع الامير الصغير: » الابتسامة تغيظ الموت، والضحك يطرده، ومن دون أن أفكر في الأمر وحده سلطان القراءة يعيد مزاجي الطبيعي إلى مجراه» قال انه اراد ان يقدم للقراء كتابا عن معاناة الوصول إلى الثمانين، والضعف والهزال ورفض الاستسلام، وعن إمكانية أن تكون سعيداً، وهانئاً ومرحاً رغم كل المنغصات.

يعترف انه ظل طوال حياته يخوض معركة مع الكتب، أحبها واحبته، وكان لها الفضل بانها منحته لقمة العيش، وقد شكل معها ثنائياً ظل الجمهور يتابعه لسنوات طويلة، فقد قررت الكتب مصيره، وكانت في كثير من الاوقات تفرض وجودها: » في بعض الأحيان تتلاعب بالقلب، احيانا بالعقل، لديها دائما سبب وجيه للبقاء. ويل للقارئ العاطفي بإفراط. ويل لأولئك الذين يشككون في ذاكرتها، ويل للمحافظين، ويل للشاردين. سينتهي بهم المطاف إلى الاستسلام جميعهم « – متعة القراءة –.